جبران

حديقة النبي

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

إن الترجمة التي خصّ بها المؤلف هذا الكتاب القيّم الذي لا يقدر أن يحدّه عقل كل طالب. فخّت من قدره وجعلته بمنزلة الكتب الباقية ولكن حبّذا لو ~~[illegible]~~ ألّفه جبران بالعربيّة لأعطانا رموزاً وأسراراً لم نكن نعهدها من قبل

- كل ما يتضمّن هذا الكتاب هي المشاكل الاجتماعية الخفية المستترة في قلوب البشر وتعاليم لم تكرز على أحد كتاب له قيمته مثل بقية منشورات جبران النبي ولكن المترجم قد أبدى ~~[illegible]~~ تقصيراً يلاحظه القارئ رغم المقدمة التي أهداها اليه

عندنان الذهبي

892.78
G474g A
c.10

حديقة النبي

ألفه بالانجليزية

جبران خليل جبران

ترجمة

كمال أخر لطيف

عنى بنشره

الشيخ
يوسف توما البستاني
صاحب مكتبة العرب

حقوق الطبع محفوظة للناشر

دار الجامعة للطبع والنشر
٢٢٢ شارع الخليج المصري

Cat. 23 Nov. '53

مقدمة

بقلم الأستاذ عدنان الذهبي

هنا لك فى تاريخ النشاط الإنسانى - فنياكان هذا النشاط ، أو علميا ، أوفلسفيا - نماذج من الشخصيات العاصفة ، التى تفاجىء المرء فى هذا التاريخ ، بقوتها ، وإمكانياتها ، بقدر ما تسترعى انتباهه بالآثار التى تتركها بعدها ، أو الوجهات التى توجه بها هذا التاريخ أو تبدله به — مثلها فى هذا ، مثل برق خاطف ، يخط ، على صفحة السماء ، المتلبدة بالغيوم ، المظلمة ، الداكنة ، أحرفا ، بل ، أسطرا ، نورانية ، تشق عباب السكون ، وتمزق جيب الظلام ، وتملأ الفضاء شرراً ، ومطراً ، حتى إذا ما صحا الناس عليها ، لم يرعهم ذكرى ظاهراتها المتلاشية ، بقدر ما يروعهم ، ما تتركه بعدها من فيضانات تجدف بالماء هنا وهنـــاك فى أنحاء دائرتهم ، أو من أخاديد ، قديمة ، جديدة ، تركتها بعدها هذه الفيضانات ! . .

وجبران خليل جبران (اللبنانى) مثل حى من هذه الشخصيات، وإن الدارس ليعجب، عند ما يحاول سبر أغوار هذه الشخصية؛ أو معرفة ما اكتنفها من ملابسات تاريخية، أو ثقافية، يعجب إذن لاندلاعها الطبيعى فى زمانها، أو تطورها الأصيل فى ظروفها، بقدر ما يعجب للآثار الفنية والفكرية التى تركتها بعدها. وأنا لم أقتنع أمام أى أديب جربت الكتابة عنه، أو أى مفكر جربت تفهم آرائه، لم اقتنع بضرورة التعاطف المنهجى، فى هذا كله، مثلما اقتنعت بضرورته مع جبران خليل جبران، وهيهات، هيهات أيضا، أن يكفى التعاطف المنهجى نفسه، وبخاصة مع أديبنا ومفكرنا هذا، بل، لا بد للدارس، بعد هذا التعاطف، من التحرر من قيود هذا التعاطف نفسه، لينظر إلى من يدرسه من زاوية جديدة، مختلفة عن الأولى، نظرة. قد تصلح ما أفسدته النظرة الأولى، وتسد ما كان فيها من نقص !!.

وعلى كل حال، حقيقة جبران خليل جبران فى نظرنا، هى أنه، أديب، شاعر، فنان، كان قد حاول التفلسف، إلا أنه أخفق فى هذه المحاولة، وكشفت لنا كتاباته، عن تحكم الفن وأساليبه فيه تحكما يدفعنا إلى التساؤل: ما إذا كنا، فى تاريخنا العربى المعاصر يحق لنا أن نعد جبران خليل جبران فى عداد المفكرين، أم

ندرجه فى زمرة الأدباء ، الشعراء المجددين ، ونعده بهذا أديبا ، فنانا ، ظل ، رغم أفكاره وآرائه ، يعيش فى أوهامه ، وخيالاته ، يطرب للجمال ويتغنى به ، كما يطرب للخيال او يهيم بشمراته ، أكثر من طربه للمنطق ، يقيد نفسه به ، أو للحقيقة المجردة فيقف عليها حياته ؟؟! . .

وأما نحن ، فأننا لا نتردد ، فى أن نعتبره من الفئة الثانية ، الشاعرة ، المتفننة ، بل إننا لمطمئنون إلى هذا كل الاطمئنان ، تؤيدنا فى هذا حياته ، ونفسيته ، وانتاجه ، التى تنطق كلها بهذه النزعة المتفننة ، كما تنطق بأن صاحبها أديب ، فنان ، جعل مادة فنه تجاربه الاجتماعية ، وخرج ، فى هذا كله ، من حيز ذاتيه الفردية الضيقة ، إلى حيز ما هو إنسانى ، رغبة منـــه فى التحليق فى سماء الفلسفة ، لولا أن أجنحته لم تسعفه قط للطيران فى سماء الفلسفة فظل أديبا ، إنسانيا ، قد امتلأت نفسه بآلام المجتمع حوله ، ومنابعها الفكرية ، والروحية ، والمادية ، كما امتلأت كتاباته باصداء هذه الآلام الاجتماعية المتنوعة !! .

وأما مقومات نفسيته ، أو طابعها الأصيل ، فهى تنحصر فى الحقيقة ، فى خياله الجامح ، القفاز ، الذى كان يلتقف كل ملكة فيه ،

خياله الذى كان يصغر إلى جانبه العقل الناقد ، البصير ، الذى له والذى لم يقيض له من يوجهه الوجهة الفلسفية الصحيحة، فانصب على تجاربه - وما أكثرها - يجعلها مادة شعوره وتفكيره وكتاباته ، شأنه فى هذا شأن الأدباء .

وأما عن تجاربه هـــذه ، فهى فى الواقع عديدة ثرة ، بل اننا ليمكننا أن نقول فيه ، أنه لم يترك بيئة ، جميلة كانت أو قبيحة ، طاهرة كانت أو مدنسة ، مؤمنة كانت أو ملحدة ، عالية كانت أو دنيا ، إلا وقد عاش فيها ، إن لم نقل عاشها ، فمر بهذا على أنواع وأنواع من العواطف ، والوجدانات، والانفعالات ، فعرف مرارة الحياة ، كما عرف حلوها ، وذاق الفقر ، كما ذاق الغنى ، وعانى الألم مثلما عانى اللذة ، وعرف الكفر وقلقه ، كما عرف الإيمان وطمانينته ، . . . وعرف أشياء وأشياء بين هذين الطرفين من التجارب ، تنطق بها كتبه العديدة ، المختلفة الآفاق كما تشهد بهذا اسفاره هنا ، وهناك فى العالمين ، القديم منهما والجديد ، أو مغامراته مع كثير من النساء اللواتى كان لهن كبير الأثر فى نفسه ؟ أو وقوفه على أنواع من الثقافات الخاصة ، الأدبية ، أو الفلسفية . . وهكذا . .

وأما عن عقيدته ، هذه العقيدة التى ظلت بالفعل مدار تفكيره الاجتماعى وأساسه ، فحقيقة الأمر هى أنه مسيحى ، ومسيحى فى أعماقه ، رغم ثورته الأدبيـــة على رجال الدين والكهنوت ، ترجع أغراس المسيحية فى نفسه إلى تلك البذور التى ألقتها فيه أمه كاملة بنت اسطفان رحمه الخورى ، يوم أن استقبلته مولوداً جديداً ، فى بشرى فى لبنان سنة ١٨٨٣ ، فأرضعته تعاليمها ، ومكنت فيه أساسها الفلسفى الاجتماعى ، الذى ظل يشدو به : المحبة ! ! .. ولذلك رأيناه فيما بعد ، وطيلة حياته ، لا يبتعد عن هذه التعاليم أو هذه السنة الاجتماعية الإنسانية الخالدة ، أو هو أن ابتعد يوما لعاصفة هبت عليه فى إحدى قراءاته ، وبخاصة قراءاته لنيتشه ، مهدر القيم ، فتراه فى اليوم الثانى يعود إلى تعاليمه المسيحية ، بصوفية أكثر عمقا ، كما يعود إلى المحبة بإيمان أكثر أصالة .

وليس أدل على هذا من إخفاقه فى هضم نيتشه ، الذى جرب تقمص شخصيته فى مرحلة من مراحل حياته ، هى مرحلة تأليفه كتبه (العواصف) و (المواكب) و (المجنون) و (السابق) التى كان يكتب فيها بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٢٠ ، والتى كلها تحمل منحنى تأثره بنيتشه ! ! . لولا أنه ، رغم هذا كله ، لم يقو على الكفر بالله ،

بل رجع يؤمن به إيمانا قريبا من الحلول المسيحى ، أو من وحدة الوجود الفلسفية ، كما أنه لم يقو على هضم حقوق الناس ، أو الثورة عليهم ، واباحته هدر قيمهم بل رجع يحب أخاه الإنسان ، ويشفق عليه ، ويساعده . . وبعبارة أخرى ، ظل مسيحيا !!.

وأما نيتشه هذا — وكان لابد من أن نضيف أيضا بليك الشاعر الرمزى الانكليزى — فقد عرفه جبران خليل جبران عن طريق كتابه : هكذا تكلم زرادشت، فلم يفهمه فهم الواقف على أمور الفلسفة المتتبع لحياة الأفكار أو تسلسلها ، لا، وانما ،فهمه هذا الفهم السريع أو لنقل تأثر به هذا التأثر الفنى ، الذى هو أشبه مايكون بانفعال عميق انفعلت له به روحه الخاطئة ، التى لم تكن لتجد ، فى شبابها الأول ذاك ، مايسد لها شعورها بآثامها الدينية الاجتماعية ، إلا التمرد على ماحولها ، من قيم روحيـة ، أو فكرية ، أو إنسانيـة ، هذا التمرد الذى جسـده له نتيشه والذى جرب عيشه ،وبدون جدوى ، فأخفق ، وأخفق إخفاقا ذريعا . وشتان بين فيلسوف منهجى التفكير ، يقيم لك الدليل على كل مايلحد إليه من شك أو ثوره ، وبين أديب خيالى ، ينسج لك من مبررات ثورته وكفره بيوتا واهنة !

هذه الاعتبارات كلها مرت فى خلدى عندما طلب إلى صديقى الأستاذ (كمال زاخر) مقدمة لهذه الترجمة الطريفة القيمة لكتاب

« حديقة النبي » لأديبنا العظيم جبران خليل جبران ، الذى أعتبره المبشر الأول بالرمزية العربية المعاصرة ! !

ولقد رحبت بكتابة هذه المقدمة علما منى بأن نشر نص يجرب القارىء التعاطف معه مباشرة ، خير من كل مايكتبه النقاد أو الدارسون فى صاحب هذا النص .

وكتبت هذه الأسطر ، وماتحويه من أحكام فنية أو فكرية فى جبران خليل جبران قلم يستهجنها من لم تطل عشرته لجبران والتى هى فى نظرى الحقيقة التى تصورها لنا كتبه كلها وبخاصة هذا الكتاب الطريف « حديقة النبي » الذى ألفه بالانكليزية ، ونشر فى نيويورك سنة ١٩٣٣ أى بعد وفاته التى كانت سنة ١٩٣١ بسنتين . وهو إذا قورن بكتاب « النبي » ، الذى كان قد نشره قبل عشر سنين ، أى سنة ١٩٢٣ ، باللغة الانكليزية ، بدا لنا إختلافه عنه فى الموضوع خاصة . وذلك انه بينما نرى جبران خليل جبران فى كتاب « النبي » يعالج المسائل الاجتماعية المتعلقة مثلا ، بالزواج والمأكل والمشرب ، والبيع والشراء ، والجرائم والعقوبات ، والخير والشر .. وغير هذا من أمور اجتماعية نجده فى هذا الكتاب يعالج المسائل الفلسفية ، وبخاصه ما يتصل منها بعقيدته ، مثل الوجود والحياة ، والتناسخ

والبعث والعود والله والكون . . وهكذا . .

وبعبارة أخرى ، من بين كتب جبران خليل جبران ، هذا الكتاب يصور لنا الجانب الاعتقادى عند هذا الأديب النافذ البصيرة ، الحاد الذكاء وبخاصة فيما يتعلق بمنحنى تطوره النفسى والفكرى - هو يصور لنا تأصل الخيوط المسيحية فيه ، وقد تغلبت فى نهاية الشوط ، على كل ما اعتلجت بها نفسه وكتبه من ثورة نيتشية أو تمرد .

وجميل بعد هذا ، أن يدقق المرء فى التفصيلات الفكرية والفنية التى وردت فى هذا الكتاب ، لولا أننى يكفينى هنا أن أقول : إننا هنا أيضا ، بينما نحن نحس أثر نيتشة فيه : وهذا فى قوله مثلا بالعود الأبدى . . . إذا بنا نراه يرجع فيؤكد لنا وجود الله . هذا الوجود الحلولى . أو يؤكد لنا ضرورة استنان المحبة . سنة بين الناس يتبادلونها فيما بينهم : وهذان هما فى أساسهما مسيحيان . . .

لنقف ، إلى هذا أيضا ، فيما يتعلق بآفاق هذا الكتاب . مالفت نظرى فيه . من تحليلات أصيلة ، دقيقة عميقة للكون . تشعرنا بوضوح بأن جبران خليل جبران قد أحس بالفرق بين الوجود . والماهية . وبأنه قال بسبق هذا الوجود على الماهية !!

وهذا غير دليل على عمق غوره !! .

وأما الترجمة الموفقة . التى قام بها صديقنا الأستاذ كمال زاخر فهى فى الحقيقة تستحق كل ثناء . وتقدير .. ولا سيما وقد رأينا أن من سبق له وترجم لجبران خليل جبران . كان يكتفى بالفكرة يستخرجها من بين الأسطر . ليصوغها كما يحلو له أسلوبه لا كما يتطلبه أسلوب جبران . فى حين أن صديقنا الأستاذ كمال زاخر قد عمل جهده على أن يبعث لنا جبران فى أعماقه . جبران بتعبيراته كما وصفها . وتشبيهاته كما رسمها . وأسلوبه كما حبره . وموسيقاه كما صاغها . فالتزم بهذا . إن شئت أن تقول . الحرفية ولم يسىء بهذا قط إلى جبران . بل أحسن كل الإحسان . فجزاه الله عنا وعن جبران كل خير . ونفعنا بمجهوداته . لقد كان حقا أمينا فى مهمته دقيقا .

عدنان الزهبى

القاهرة فى سنة ١٩٥٠

عاد المصطفى المختار الحبيب الذى كان قد استشرف ظهيرة أيامه إلى الجزيرة التى ولد فيها فى شهر تشرين ، شهر الذكرى .

وفيما كانت سفينته تدنو من الميناء ، وقف فى مقدمتها يحيط به ملاحوه ، وقد اهتز قلبه بشعور العائد إلى وطنه .

ثم تكلم بصوت يهدر كالبحر ، وقال : « هاهى الجزيرة التى ولدنا فيها ، — هنا فى هذا المكان — قذفت بنا الأرض أغنية وأحجية ، أغنيـــة إلى السماء ، وأحجيه إلى الأرض ، وأى شىء هناك بين السماء والأرض غير آلامنا يسعه أن يرتل الأغنية ويفسر الأحجية .

« إن البحر يسلمنا مرة ثانيـــة إلى هذه الشواطىء ، فما نحن إلا موجة أخرى تدفعها أمواجه ؛ وهو يرسلنا لنذيع كلماته ، ولكن كيف يتأتى لنا أن نفعل هذا إن لم نحطم تماثل قلوبنا فوق الصخور والرمال ؟

« فهذا هو قانون البحر والملاحين : « إذا كنتم تنشدون الحرية فما أشد حاجتكم إلى أن تتحولوا إلى ضباب . إن مالا شكل له ينشد

أبداً أشكالا ، حتى السدم التى لا حصر لها ترجو أن تصبح شموساً وأقماراً ، ونحن الذين طال تجوالنا ونعود الآن إلى هذه الجزيرة أشكالا جامدة يجب علينا أن نصبح ضبابا مرة أخرى ونتعلم كل شيء منذ البداية ، فأى شيء يمكنه أن يحيا ، ويرتفع إلى الأعالى إن هو لم يتحطم إلى ألم وحرية ؟

« سوف نبقى أبداً فى حاجة إلى الشواطىء ، علنا نغنى ونسمع الناس أصواتنا . ولكن مابال الموجة التى تتكسر حيث لا أذن لتسمع ؟ ألا أن غير المسموع فينا هو الذى يغذى أحزاننا العميقة . ولكن غير المسموع أيضاً هو الذى ينحت لأرواحنا شكلا ، ويصنع أقدارنا » .

عندئذ تقدم إليه أحد ملاحيه وقال : « باسيد ، لقد حدوت أشواقنا إلى هذا الميناء ، وهانحن الآن قد وصلنا ، بيد أنك تتحدث عن الألم ، وعن قلوب سوف تتحطم » .

فأجابه وقال : « أو لم أتحدث أيضاً عن الحرية ، وعن الضباب الذى هو حريتنا العظمى ؟ وها أنا فى ألم قد حججت إلى هذه الجزيرة التى ولدت فيها ، كما يأتى شبح مذبوح ليركع أمام أولئك الذين ذبحوه » .

وتكلم بحار آخر وقال : « هاهى ذى الجموع على شاطىء البحر

لقد تنبأت فى صمتها باليوم والساعة التى يكون فيها قدومك فأقبلوا من حقولهم وكرومهم يدفعهم حبهم لينتظروك » .

وأرسل المصطفى نظرة بعيدة إلى الجموع ، فأنعم شوقهم إليه قلبه ، وظل صامتاً .

وأقبلت حينئذ صيحة من الجموع ، صيحة التذكر والتوسل .

فنظر إلى بحارته ، وقال : « وأى شىء جئتهم به ؟ صياداً كنت فى أرض بعيدة ، ولقد أطلقت السهام الذهبية التى أعطونى أياها فى أمل وعزم ، وها أنا لم أجلب معى صيداً ، أنا لم أتبع السهام إلى حيث أطلقتها ، ولعلها تنتشر الآن فى أشعة الشمس بأجنحة نسور مجروحة لن تسقط إلى الأرض قط ، وعسى الأقواس قد تلقفتها أيدى من هم فى حاجة الى الخبز والخمر » .

لست أعرف أين انتهى انطلاقها ، ولكن هذا ما أعرفه لقد رسمت أقواسها فى السماء .

« ورغم هذا فما زالت يد الحب مبسوطة فوقى ، وما فتىء ملاحى يطوفون برؤياى ، ولن يصمت فمى ، بل لسوف أصرخ عندما تمتد يد الفصول لتطبق على عنقى ، وسأتغنى بكلماتى بينما تحترق شفتاى باللهيب » .

فانزعجت قلوبهم إذ تحدث هكذا ، وقال واحد منهم : « علمنا ياسيد جميعا ، فلعل دمك الذى يجرى فى عروقنا ، وأنفاسنا التى هى من عبيرك يجعلانا نفهم ما تقول »

فأجابهم بصوت يصفر كالريح وقال : «هل جئتم بى إلى الجزيرة التى ولدت فيها لأكون معلما ؟ أنا لم أحبس بعد فى حكمتى وما زلت يافعا وغضا فليس لى أن أتحدث عن شىء ما خلا النفس التى ستكون إلى الأبد العميق ينادى العميق.

« دعوا ذلك الذى ينشد الحكمة أن يفتش عنها فى زهرة من الشقيق الأصفر أو فى قبضة من الصلصال الأحمر أما أنا فسأظل مغنيا ، سأغنى للأرض ، ولأحلامكم الضائعة التى تعبر النهار بين غفوة وغفوة بيد أنى سأثبت بصرى فى البحر .»

وها هى ذى السفينة تدخل الآن الميناء ثم تلامس ساحل البحر ، وهكذا أقبل الى الجزيرة التى ولد فيها ليقف مرة أخرى بين شعبه ، وارتفعت من قلوبهم صيحة عظيمة ، ارتج لها فى داخله شعور الوحدة الذى آب به إلى وطنه.

وران على الجمع سكون عميق مترقبين كلمته ، ولكنه لم يستجب لهم لأن كآبة الذكرى قد سقطت عليه ، وقال فى نفسه

«أوقلت لهم أنى سأغنى؟ كلا ، فليس فى وسعى سوى أن أفتح شفتاى ، لعل صوت الحياة ينطلق ليذهب مع الريح عونا للناس ومسرة»

عندئذ تكلمت «كريمة» التى لعبت معه طفلة فى حديقة أمه وقالت : «اثنا عشر عاما حجبت فيها وجهك عنا ، ومنذ أثنا عشر عاما ونحن نحس جوعا الى صوتك وعطشا»

فنظر اليها المصطفى فى رقة متزايدة ، فقد كانت هى التى أغلقت عينى أمه عندما جمعتها أجنحة الموت البيضاء .

وأجابها وقال : «اثنى عشر عاما ؟ أوقلت اثنى عشر عاما يا كريمة أنا لا أحسب شوقى بدورات النجوم فى أفلاكها ! ولا هكذا أقيس الأعماق . فعندما يكون الحب حنينا الى الوطن تتلاشى حينئذ مقاييس الزمن وحسابه .

«ثمت لحظات تجمع أزمنة من الانفصال لاحد لها ، ولكن ليس الانفصال إلا نفاذ العقل . لعلنا لم ننفصل».

ونظر المصطفى الى الشعب ، ورأى أفراده جميعا ، الشاب فيهم والشيخ ، القوى فيهم والهزيل ، هؤلاء الذين وردت وجناتهم لمسات الريح والشمس ، وأولئك الشاحبى الملامح ، وقد لاح على وجوههم جميعا شعاع من الشوق والتساؤل

وتكلم واحد وقال: «ياسيد، لقد عبثت الحياة بآمالنا ورغائبنا، وان قلوبنا لمنزعجة. ولسنا ندرك سببا لهذا فأتوسل اليك أن ترأف بقلوبنا، وتكشف عما فى آلامنا من معان».

فرق قلبه وقال: «إن الحياة أقدم من كل شىء حى فلقد كان الجمال مختبئا فى ذلك الوقت الذى لم قد يكن ولد فيه الجيل بعد فى الأرض، وكان الحق حتما قبل ان تنطق به الأفواه».

«تغنى الحياة فى صمتنا، وتحلم فى هجوعنا، بل وفى هزيمتنا وحزننا تظل الحياة مرفوعة الرأس مكللة الجبين. وحين نبكى نحن تبتسم الحياة فى وجه النهار، وتبقى دائما حرة طليقة بينما نكون نحن فى الأسر مقيدين».

كثيرا ما نطلق على الحياة أمر الأسماء، غير أن ذلك لا يكون الا عندما نحس نحن مرارة فى نفوسنا التى يغشاها الظلام وكثيرا ما نحكم بأنها فارغة لا غناء فيها، غير أن ذلك لا يحدث إلا عندما تذهب الروح لتتجول فى أماكن مهجورة، ويكون القلب مخمورا بتعالى الإنسان على ذاته.

الحياة عميقة وعالية ورحبة، ورغم ان مدى بصركم لا يتجاوز رؤية أقدامها إلا أنها قريبة، ورغم أن أنفاس أنفاسكم فقط هى

التى تصل إلى قلبها ، وظل ظلالكم وحده هو الذى يعبر فوق وجهها فإن أخفت طرحاتكم هى التى تصبح ربيعا وخريفا فى صدرها .

« والحياة محجبة ومخبأة ، كأن ذاتكم الكبرى مخبأة ومحجبة ولكن حين تنطق الحياة فالرياح كلها كلمات لها وحين تنطق ثانية تتحول البسمات التى على شفاهكم ، والدموع التى فى عيونكم إلى كلمات أيضا ، وعندما تغنى يسمع الأصم ويؤخذ ، وعندما تقبل ماشية يبصرها الأعمى ويذهل ويتبعها فى إعجاب ودهشة » .

ثم أمسك عن الكلام وران على الشعب صمت عميق ، وسرت فى السكون أغنية غير مسموعة ، وقد سرى عنهم واستشعروا برد الراحة عما لاقوه فى وحشتهم والآلام الطويلة .

وتركهم ومضى توا فى الطريق الذى يؤدى إلى حديقته التى كانت فيما مضى حديقة أمه وأبيه والتى يرقدان فيها نائمين هما وآباؤهما .

ولم يذهب وراءه أحد من بين أولئك الذين كان يجب أن يتبعوه بل تركوه وحيداً لأن شعور الوحدة الذى آب به إلى وطنه كان يملأ قلبه . وهكذا لم يبق ثمة واحد من بين أهله جميعاً لكى يحتفل بمقدمه كما هى عادة شعبه .

ولكن قائد سفينته أشار عليهم قائلا : « لا تتبعوه لئلا ينزعج فإن خبزه هو خبز الوحدة ، وفى كأسه خمر الذكرى ، ولسوف يجرعها وحيداً » .

فأمسك ملاحوه عن السير وراءه لأنهم كانوا يعرفون أن ما قاله قائد سفينتهم هو حق . كما أن أولئك الذين كانوا قد تجمعوا على ساحل البحر كبحوا جماح رغبتهم التى كانت تدفعهم ورائهم أقدامها أما « كريمه » . فقد تبعته شطرا من الطريق مشفقة عليه من وحدته وذكرياته ، ولم تفتح فاها لتتكلم بل إنقلبت عائدة إلى بيتها وهناك فى الحديقة تحت ظل شجرة الصنوبر جثت باكية ، ولكنها لم تكن تدرى سببا لبكائها . .

وجاء المصطفى إلى حديقة أمه وأبيه ، فولجها وأغلق البوابة خلفه حتى لا يدخل فى أعقابه إنسان .

ومكث هناك وحيداً فى ذلك المنزل، وفى تلك الحديقة أربعين يوماً وأربعين ليلة ، ولم يأت إنسان حتى إلى البوابة لأن الجميع قد علموا أنه يرغب أن يترك وحيداً .

وعندما انتهت الأيام والليالى الأربعون فتح المصطفى الباب علهم يدخلون .

وجاء إليه تسعة رجال ليكونوا معه فى الحديقة ، ثلاثة ملاحين من سفينته ، وثلاثة ممن خدموا فى الهيكل وثلاثة ممن كانوا رفاقه فى اللعب زمان طفولته، وهؤلاء جميعاً كانوا له تلاميذاً .

وذات صباح جلس حوله تلاميذه ، بينما شعت فى عينيه ذكريات بعيدة ، وقال له التلميذ الذى يدعى حافظ : هات حدثنا يا سيد ، عن مدينة أورفليس . وعن تلك الأرض التى تغربت فيها هذه السنوات الأثنى عشر . »

أما المصطفى فقد ظل صامتا يتطلع إلى التلال وإلى الأثير العظيم. وقد انطوى صمته على صراع.

ثم قال: «يا أصدقائى، ويا رفاق طريقى، أرثو لأمه زاخرة بالمعتقدات، ولكنها خاوية من الدين.

«أرثو لأمه تسمى السفيه فيها بطلا، وتترجى الخير من يدى الفاتح الذى يتيه جلالا وروعة.

«أرثو لأمه تكتسى بثوب لم تنسجه، وتطعم خبزا لم تحصده وتشرب خمرا لم يتحدر من معاصرها.

«أرثو لأمه لا ترفع صوتها إلا عندما تسير وراء نعش، ولا تفتخر إلا بين خرائبها، ولا تناضل إلا عندما يوضع عنقها بين السيف والنطع.

«أرثو لأمه تحتقر آلامها فى أحلامها لكنها تخضع لها فى يقظتها.

«أرثو لأمه حاكمها ثعلب وحكيمها محتال، وفنها ترقيع وتقليد

«أرثو لأمه تستقبل حاكمها الجديد بالطبول وتودعه بالصفير لكى تستقبل حاكما آخر بالطبول مرة أخرى.

« أرثولأمه قد عقدت السنون ألسنة حكمائها ، أما أقوياؤها فما زالوا فى المهد .

« أرثولأمه مقسمة إلى أقطاع تعتبر كل منها نفسها أمه » .

وقال واحد منهم : «هات حدثنا عن ذلك الذى تعتلج به الآن نفسك» .

ونظر إلى محدثه ثم قال بصوت كأنه صوت نجم يغنى :

« فى أحلام يقظتك ، عندما تكون صامتاً منصتاً إلى أعماق ذاتك تتساقط خواطرك كندفات الثلج ، وتكسو أعماقك بصمت أبيض .

« وهل أحلام يقظتك إلا سحب تتفتح وتزهر فوق شجرة السماء التى فى قلبك ؟ وهل الخواطر إلا البتلات التى تبعثرها رياح قلبك فوق التلال والحقول ؟

« فأنت إذن ترتقب السلام حتى يصبح عديم الشكل فى داخلك شكلا ، وهكذا تتجمع السحب وتتدافع حتى تشكل الأصابع المباركة رغبتها الرمادية التى طال بها العهد شموسا وأقماراً ونجوما » .

عندئذ تكلم سركيس الذى لم يكن الإيمان قد ملأ قلبه بعد

وقال : « بيد أن الربيع سيأتي وحينئذ تذوب ثلوج أحلامنا فلا يبق لها أثر فيما بعد » .

فأجاب وقال : « ستذوب الثلوج حتما عندما يقبل الربيع باحثا عن حبيبه بين الأحراش والكروم الوسنانة وستجرى جداولا باحثة عن النهر فى الوادى كيما تكون الساقى الذى يحمل الكأس التى تسقى أشجار الآس والغار .

« وستذوب كذلك الثلوج التى فى قلبك عندما يحل ربيع حياتك ، وهكذا سيجرى سرك فى جداول باحثا عن نهر الحياة . فى الوادى فيطويه النهر ويحمله إلى البحر العظيم .

« سيذوب كل شىء عندما يأتى الربيع ويتحول إلى أغان بل إن النجوم كذلك وندف الثلج التى تساقط فى تراخ فوق الحقول الواسعة ستذوب أيضا وتتحول إلى جداول مغنية . وعندما ترتفع شمس وجه الله فوق الأفق العريض أى تناسق متحجر لن يذوب لحنا رقيقا ؟ ومن منكم لن يكون الساقى الذى يحمل الكأس ليسقى أشجار الآس والغار ؟

« كنتم تتحركون بالأمس القريب فوق البحر المتحرك وكنتم بلا شاطىء وبلا ذات فنسجتكم الريح . نسمة الحياة . حجابا من

النور فوق وجهها . ولمت بيدها شعثكم وأعطتكم شكلا ثم مضيتم تبحثون بؤس مرفوع عن الأعالى ولكن البحر مافتىء يلاحقكم وما زالت أغنيته ترافقكم ورغم أنكم نسيتم قرابتكم له فلن يثنيه ذلك عن أن يؤكد لكم أبوته أبداً وأبداً سوف يناديكم إليه.

« سوف تذكرون دائما أثناء تجوالكم خلال الجبال والصحارى غور قلبه البارد . ورغم أنكم ستجهلون حينئذ حقيقة ماتشتاقون إليه إلا أنه لا شك فى أنكم تنشدون سلامة العظيم الدائم .

« وكيف يكون الأمر إذاً ؟ فى الأحراش وفى الخمائل عندما ترقص قطرات الندى فى الأوراق فوق التل ، ويسقط الثلج نعمة وميثاقاً فى الوادى حيث تسوقون قطعانكم إلى النهر . وفى حقولكم حيث مسارب المياه كجداول من الفضة تلتقى بالرداء الأخضر . فى حدائقكم حيث تعكس قطرات الندى المبكر صفحة السماء . وفى مروجكم عندما يسدل الضباب فوق دروبكم ستائره الشفافة . فى هذه جميعاً يكون البحر فيكم شاهداً على ما ورثتموه عنه ، مطالباً بحبكم له .

« إنه ندف الثلج فيكم يجرى منحدراً إلى البحر ».

وفيما هم يسيرون فى الحديقة ذات صباح بدت لهم هناك خلف البوابة امرأة ، وكانت هى « كريمة » تلك التى أحبها المصطفى فى صباه كأخت له ، وقد وقفت خارجاً لا تسأل شيئاً ولا تقرع الباب بيدها ، بيد أنها ظلت تحدق فى الحديقة فى أمل وألم .

ولمح المصطفى رغبة فى جفونها فمضى إلى السور بخطوات سريعة وفتح لها البوابة فولجتها وأحسنوا جميعا استقبالها .

وتكلمت وقالت : « لماذا مضيت عنا فلم نعد نحيا فى ضوء محياك؟ هوذا نحن قد أحببناك هذه الأعوام الطوال وترقبنا عودتك إلينا سالما فى شوق ، والآن هاهى الجموع تصرخ راغبة فى أن تتحدث إليها ، وأنا رسولتهم إليك أتيت ألتمس منك أن تخرج إليهم وتحدثهم بحكمتك فتعزى أصحاب القلوب الكسيرة وتهذب حماقاتنا » .

فنظر إليها قائلا : « لا تدعينى حكيما مالم تدعى الناس كلهم حكماء . فما أنا إلا فاكهة صغيرة . لم تزل بعد عالقة بالغصن ، وبالأمس فقط أصبحت زهرة فحسب .

« ولا تدعى أحداً بينكم أحمقا ، فليس أمام الحق حكيم ولا أحمق . نحن أوراق خضر فى شجرة الحياة ، والحياة نفسها تسمو فوق الحكمة ، وليس من شك فى أنها تسمو فوق الحماقة أيضا .

« وهل مضيت عنكم حقا ؟ أو لا تعرفين أنه ليس ثمة بعد إلا ذلك البعد الذى تقيمه الروح فى الخيال ؟ وعندما تقيم الروح هذا البعد ، سيصبح حينئذ متواتراً فيها .

« إن البعد القائم بينك وبين جارك القريب الذى لم تربطك به أواصر الصداقة هو فى الحق أعظم من ذلك الذى يوجد بينك وبين حبيبك الذى يعيش وراء الأراضى والبحار السبع .

« ليس ثمة فى الذكرى إذاً أبعاد ، ولكن النسيان وحده هوة لا يستطيع صوتك ، ولا بصرك أن يعبرها .

« بين شواطىء المحيطات ، وذرى الجبال العالية ، طريق خفى يجب عليك أن تسلكه قبل أن تصبح واحداً من أبناء الأرض .

« وبين معرفتك وفهمك طريق خفى يجب عليك أن تكتشفه قبل أن تصبح إنسانا وتحقق بالتالى ذاتيك » .

« بين يدك اليمنى التى تعطى ويدك اليسرى التى تأخذ مسافة هائلة

بيد أنك عندما تجعلهما يأخذان معا ويعطيان معا فحينئذ فقط تستطيع أن تمحو هذه المسافة القائمة بينهما لأنه عندما تستيقن أنه لاشيء عندك لتعطى ولاشيء لتأخذ فحينئذ فقط تستطيع أن تعبر هذه المسافة » .

« حتما إن أعظم المسافات بعداً هي تلك التي تقع بين رؤى نومكم ويقظتكم ، وبين ذلك الذى ماهو إلا عمل ، وذلك الذى إن هو إلا رغبة .

« وثمة طريق آخر يجب عليكم أن تعبروه قبل أن تكونوا والحياة شيئا واحداً ، بيد أننى لن أتحدث الآن عنه لأنى أراكم قد تعبتم من السفر » .

ثم انطلق فى صحبة المرأة وتلاميذه التسعة وجاء إلى السوق وتحدث إلى الشعب والى أصدقائه ، والى جيرانه ، وقد غمر الفرح قلوبهم وبدا متلألأ فوق أجفانهم .

وقال : «فى نومكم تنمون . وفى أحلامكم تحيون أعمق الحياة لأنكم تنفقون أيامكم كلها شاكرين من أجل ذلك الذى أخذتموه فى سكون الليل » .

« كثيرا ما تفكرون وتتحدثون عن الليل كأنه فصل الراحة . ولكنه فى الحقيقة فصل البحث والاكتشاف .

« أن النهار يهبكم قوة المعرفة . ويعلم أصابعكم أن تحذق فن الأخذ . ولكن الليل هو الذى يقودكم إلى خزانة الحياة

« من الشمس تتعلم جميع الأشياء التى تنمو كيف تشتاق إلى الضوء . ولكن الليل وحده هو الذى يرفعها إلى النجوم .

« فسكون الليل هو الذى ينسج حجاب الزفاف فوق أشجار الغابة ، وفوق أزهار الحديقة ثم يقيم بعد ذلك حفلا ينفق فيه

بسخاء ، ويعد حجرة الزواج . وفى خلال هذا الصمت المقدس يحمل بالغذ فى رحم الزمان .

« وهكذا الحال معكم. فانتم حينما تفتشون تجدون قوتاً واكتفاء ورغم أن الذكرى تسبق فى الفجر يقظتكم إلا أن مائدة الأحلام مبسوطة أبداً كما أن حجرة الزواج ستبقى الى الأبد معدة للاستقبال » .

وسكت برهة . فلبثوا هم أيضا منتظرون ما يكلمهم به . ثم تحدث ثانية وقال : « أنتم أرواح رغم أنكم تتحركون داخل هذه الأجساد . وكالزيت الذى ينير فى الظلام ، أنتم مشاعل رغم أنها تنير داخل مصابيح .

« لو كنتم أجساداً فحسب لكان وقوفى أمامكم وحديثى اليكم فراغا عميقاً . أو كما ينادى ميت أمواتاً . ولكن ليس الأمر هكذا كل مالا يعتريه الفناء فيكم هو حر فى الليل والنهار . ولن يحبس أو يقيد لأن هذه هى إرادة العلى أنتم نسماته ، كالريح ما أعسر القبض عليها أو تقيدها وأنا أيضا نسمة من نسماته .»

ثم انصرف من بينهم بخطى سريعة وولج الحديقة مرة أخرى وتكلم سركيس ذلك الذى لم يكن الإيمان قد غمر قلبه وقال « وماذا

عن القبح ياسيد ؟ أنت لا تتحدث قط عن القبح .

وأجاب المصطفى وكان فى كلماته حنيف السياط وقال : «ياصديق أو يحق لانسان مريبا بك ولم يقرعه أن يدعى أنك لست كريما ؟

« أو يحق لأحد أن يحكم عليك بأنك أصم لو أنه تحدث اليك بلسان غريب فلم تفقه له معنى . ؟

أوليس ذلك الذى لم تكافح قط لتصل اليه ولم ترغب قط أن تنفذ إلى قلبه هو ذلك الذى تدعوه قبيحا ؟

« إن كان القبح شيئا آخر فهو القذى فى عيوننا والشمع يملأ آذاننا .

« ياصديق . لا تدع شيئا قبيحا عدا رعدة الروح فى حضرة ذكرياتها . »

وذات يوم . وقد افترشوا الظلال الممتدة التي لشجرة الحور البيضاء تحدث أحدهم وقال « لشد ما أخشى الزمن يا سيد ، أنه يعبر فوقنا ، ويسلبنا شبابنا . وماذا يعطينا عوضاً عنه ؟ »

فأجاب وقال : خذ بين يديك الآن حفنة من التراب ما عساك واجد فيها ؟ أحبة قمح أم دودة أرض ؟ لو أن راحة يدك مستطيلة العمر بما فيه الكفاية لأصبحت هذه الحبة غابة وأصبحت هذه الحشرة سرباً من الملائكة . ولكن لا يغرين عن بالك أن السنين التي تحول البذور إلى غابات والحشرات إلى ملائكة هي إبنة « اللحظة » إن السنين كلها هي « اللحظة » .

« أوليست تقلبات الفصول على مدار السنين هي أفكاركم التي لا تثبت على حال ؟ أما الربيع فهو صحوة في صدوركم . وأما الصيف فمعرفة لأثمارکم . ثم أليس الخريف إلا العتيق من الأيام فيكم يغني مهده . أذلك الذي مازال طفلا في كيانكم ؟ ودعوني اسألكم أيكون الشتاء شيئاً آخر غير النوم يحمل في رحمه أحلام الشهور الأخرى جميعاً ؟ »

وتطلع مانوس ، التلميذ كثير الأسئلة حوله ورأى نباتات مزدهرة متعلقة بشجرة الجميز فقال : « أنظر إلى هذه الطفيليات يا سيد ، ماذا تقول فيها ؟ انها سارقة ذات أجفان مجهدة تسلب أبناء الشمس الراسخين الضوء ثم تدعى لنفسها ذلك العصير الذى يجرى فى فروعها و أوراقها ؟ .»

فأجابه قائلا : «كلنا طفيلى ياصديق ، فنحن الذين نجهد أنفسنا كى ننفخ فى الروض حياة متدفقة لسنا أرفع شأنا من أولئك الذين يغترفون الحياة من الروض دون أن يعرفوا عنه شيئا ؟

« أو تقول الأم لإبنها : وها أنا أعيدك إلى الغابة : أمك الكبرى ترهق قلبى ويدى ؟ »

« أم هل ينتهز المغنى اغنيته قائلا : هيا ارجعى الآن إلى كهف الأصداء حيث أتيت لأن صوتك يبدد أنفاسى ؟

« أم هل يقول الراعى لقطعانه ليس لدى مرعى أقودكم اليه ، فيجب عليكم أذن ان تقطعوا أنفسكم وتقدموها قرابينا ؟

« كلا ياصديق ، إنك لتعرف إجابات هذه الاسئلة كلها قبل أن تسألها ، فهى كأحلامك قد تحققت قبل أن تنام

« إننا نعيش جميعا بعضنا فوق بعض ، وفق قانون أزلى قديم

دعنا نعيش هكذا فى شفقة وحب يهيب بعضنا ببعض فى وحدتنا، وحين لا نجد موقد نجلس إلى جواره دعنا نواصل حينئذ السير فى الطريق

« يا أصدقائى ويا اخوتى ، إن الرفيق هو أرحب الطرق

« هذه النباتات التى تعيش فوق الشجرة تجذب العصير من الأرض فى سكون الليل الجميل ، بينما ترضع الأرض خلال أحلامها الهادئة من صدر الشمس .

« والشمس أيضا مثلى ومثلك ومثل كل موجود تتساوى معنا فى شرف الجلوس إلى مائدة الامير الذى يفتح بابه دائما ويبسط مائدته كل حين

« مانوس ، يا صديقى ، إن الموجودات كلها تعيش بعضها فوق بعض ، والكل يحيا فى ثقة بغير شاطىء فى ظل العلى . »

وفى ذات صباح ، ولما يزل الفجر يكسو السماء بلونه الشاحب ساروا جميعا فى الحديقة ، وتطلعوا إلى الشرق صامتين فى حضرة الشمس الطالعة

وبعد برهة اشار المصطفى بيده وقالى « إن صورة شمس الصباح منعكسة فى قطرة الندى ليست أدنى من الشمس ذاتها وانعكاس الحياة فى نفوسكم ليس أقل شأنا من الحياة نفسها .

« إن قطرة الندى تعكس الضوء ، لأنها والضوء شىء واحد وأنتم تعكسون الحياة لأنكم والحياة شىء واحد أيضا.

« عندما يملأ الظلام نفوسكم قولوا « هذا الظلام فجر لم يولد بعد » ورغم أننا ننوء بعبء الليل الثقيل ، لكن سوف يولد الفجر فينا كما سيولد أيضا فوق الجبال

« ما أشبه قطرة الندى التى تدور فى فلكها فى عتمة السوسن بكم حين تجمعون أرواحكم فى قلب الإله.

« إذا قالت قطرة الندى ، ولكنى أصبح مرة واحدة كل الف عام قطرة ندى

« فتكلموا أنتم وقولوا لها « ألست تعرفين أن أضواء السنين جمعاء تلمع فى دائرتك .؟

وأقبلت على المكان ذات مساء عاصفة هائلة ، فدخل المصطفى وتلاميذه التسعة بيته ، وجلسوا حول النار ثم لبثوا ساكنين صامتين .

حينئذ قال واحد من تلاميذه : « أنا وحيد ياسيد ، وسنابك الزمن تقرع بشدة فوق صدرى » .

وأنتصب المصطفى واقفا وسطهم وقال بصوت يشبه صوت ريح عاتية :

« وحيد ! وماذا فى ذلك ؟ لقد جئت وحيداً ، وحيداً سوف تمضى خلال الضباب » .

« فاشرب إذا كأسك وحيداً ، وفى صمت ، فلقد أعطت أيام الخريف شفاها أخرى وكؤوسا أخرى ملأتها خمراً معتقة ومره كما ملأت كأسك أيضاً » .

« إشرب كأسك وحيداً رغم أنك تتذوق فيها دمك ودموعك ثم بارك الحياة من أجل عطية الظمأ ، فبغير العطش لن يكون قلبك إلا شاطىء بحر مجدب لا أغنية له ، ولا مد له ولا جزر .

«اشرب كأسك وحيدا وإشربها مبتهجا ، ارفعها عالية فوق رأسك ، ثم اشربها بنهم نخب أولئك الذين يشربون وحدهم

«نشدت مرة صحبة الناس وجلست معهم الى موائدهم وشربت بينهم من كؤوسهم ، لكن خمرهم لم ترتفع إلى رأسى ، لا ولم تطف فوق صدرى بل هبطت إلى قدمى فحسب ، أما حكمتى فقد تركوها جافة يابسة ثم أغلقوا قلبى ووضعوا عليه ختما ، ولم يكن هناك غير قدمي وحدهما تسيران معهم فى دروبهم

«ومنذ ذلك الحين لم أنشد صحبة الناس مرة أخرى ، ولم أشرب معهم خمرا على موائدهم

«اصغ إذن إلى ما أقوله لك ، أنت تقول ان سنابك الساعات تقرع بشدة فوق صدرك ، فماذ تأمل غير ذلك ؟ خير لك أن تشرب خمرة حزنك وحيدا لأنك ستشرب حينئذ خمرة مسرتك وحيدا أيضا » .

وفى ذات صباح بينما كان فرادوس التلميذ اليونانى يسير فى الحديقة تعثرت قدمه فى حجر فغضب ، فانقلب وأمسك بالحجر ثم همس قائلا « أيها الشىء الميت الذى يعترض طريقى ! » ثم ألقى به بعيداً

فقال المصطفى المختار الحبيب « لماذا تقول أيها الشىء الميت ، أو مكثت فى هذه الحديقة زمنا هذا مقداره ، ولم تعرف بعد أنه لا يوجد شىء ميت هنا ؟ إن كل شىء يحيا ويتوهج فى معرفة النهار وجلال الليل

« أنت والحجر صنوان ، ثمة فارق واحد تتلمسه فى دقات القلب ان دقات قلبك أسرع قليلا أليس كذلك يا صديقى . . . . ؟ نعم ولكنها ليست كدقات قلبه هادئة

« لعل لها إيقاعا آخر ، ولكنى أقول لكم لو أنكم سبرتم أغوار أرواحكم وتأملتم أعالى المكان فلن تسمعوا آنئذ غير لحن واحد يغنى فيه النجم والحجر معا فى توافق تام .

« إذا كانت أقوالى لا تلمس فهمك فدعها إذن إلى فجر جديد ، فإن كنت قد لعنت الحجر لأنك فى غفلتك قد تعثرت به فلعلك حينئذ تلعن النجم فى السماء إذا أصدمت به رأسك غير أنه سوف يأتى اليوم الذى تجمع فيه الحجارة والنجوم وقد تساوت كلها لديك كما يجمع الطفل زهرات الوادى ، وآنئذ ستعرف أن هذه كلها حية تتنفس . . .

وفى أول الاسبوع، عندما طرقت أسماعهم أصوات أجراس الهيكل تكلم واحد وقال «ياسيد، إننا نسمع كثيرين فيما حولنا يتحدثون عن الله فماذا تقول أنت عنه ومن يكون هو فى حقيقة الأمر؟

وأنتصب أمامهم كشجرة قصيرة لا تهاب الريح أو العاصفة وأجاب قائلا «تأملوا الآن يارفاقى ويا أحبائى فى قلب يحوى كل قلوبكم، وفى حب يطوق كل حبكم، وفى روح يغلف كل أرواحكم وفى صوت يحتضن كل أصواتكم، وفى صمت أعمق من كل صمت وهو أزلى

«فتشوا فى ذواتكم لتروا جمالا أعظم روعة من كل شىء جميل وأغنية أبعد مدى من أغانى البحر والغابة، وجلالا يستوى على عرش له الجوزاء مرطى لقدميه يحمل فى يده صولجانا ليست ثرياه الأ بريق قطرات الندى.

لم تكن لكم غايه إلا الحصول على الطعام، والمأوى والكساء والعصا، ليتكم تفتشون الآن عن ذلك الذى ليس هدفا لسهامكم ولا ولا كهفا فى الصخور يحميكم من العناصر»

«إذا كانت أقوالى صخرة أو أحجية، فتقبلوا إذن لئلا تتصدع قلوبكم ويسلمكم تساؤلكم إلى الحب وإلى حكمة العلى الذى يدعوه الناس الله...»

وكانوا جميعا صامتين مضطربين فى قلوبهم، وتحرك قلب المصطفى شفقة عليهم وأحدق فيهم برفق وقال «لنمسك الآن عن الحديث عن الله، ولنتحدث بالأحرى عن الآلهة، الذين هم جيرانكم وإخوانكم، تلكم العناصر التى تتحرك فى منازلكم وحقولكم

«قد ترتفعون بخيالكم إلى السحب فيبدو لكم ذلك سموا، وقد تعبرون البحر العظيم فيتراءى لكم واسعا ممتدا ولكنى أقول لكم عندما تبذرون حبة فى الأرض عندئذ ترتقون الارتفاع الأعظم وعندما تحيون جمال الصباح لجيرانكم تكونون قد عبرتم البحر الأوسع.

«كثيرا ما ترفعوا تسابيحكم إلى الله الغير محدود، ولكنكم لاتسمعونها. أليس من الخير أن تنصتوا إلى الطيور المغنية وإلى صوت الأوراق التى تترك أغصانها عندما تمر بها الريح، ولا يغيبن عن بالكم أنها لا تغنى إلا عندما تفارق الغصن.

أعود فأناشدكم ألا تتحدثوا بهذه الحرية عن الله الذى هو

الكل فيكم ، ولكن تحدثوا بالاحرى - حتى يفهم بعضكم بعضا - جار إلى جار وإله إلى إله

«من هو الذى يضع الغذاء فى فم الطائر الذى لم ينبت ريشه بعد إذا طارت أمه صوب السماء ! وأى زهرة فى الحقل يحين حينها لتخصب ، إن لم تلقحها نحلة بزهرة أخرى ؟

« عندما تضلون فى ذواتكم الصغرى تنشدون السماء التى تدعونها الله عليكم تكتشفون دروبا فى ذاتكم الكبرى ، وعليكم تكونون أقل خمولا ، وتمهدون الطريق .

«ياملاحى ، ويا أصدقائى ، كان من الخير أن نقل الكلام عن الله الذى لن نظفر بإدراكه ، وأن نكثر الكلام عن بعضنا البعض علنا نستطيع أن نفهم ذواتنا ، ولكن أود أن تعرفوا أننا أنفاس الله وعبيره . نحن الله ، فى ورقة الشجرة وفى الزهرة وأحيانا كثيرة فى الثمرة »

وذات صباح حين كانت الشمس قد ارتفعت فى صفحة الأفق دنا منه أحد التلاميذ . أحد أولئك الذين لعبوا معه أيام طفولته وقال : « يا سيد . لقد بلى ثوبى . وليس لى سواه . فأذن لى أن أذهب إلى السوق وأساوم البائعين علنى أستطيع الحصول على ثوب جديد . »

ونظر المصطفى إلى ذلك الشاب وقال : « اعطنى ثوبك » فامتثل ووقف عاريا فى رائعة النهار

وقال المصطفى بصوت شبيه بصوت جواد صغير يجرى فوق الطريق : « إن من يتجرد من ثيابه هو وحده الذى يستطيع أن يحيا فى ضوء الشمس ، وأن من لا تثقله قيود الصناعة هو أيضا وحده الذى يستطيع أن يمتطى الريح ، وذلك الذى يفقد طريقه آلاف المرات هو وحده الذى يعود الى الوطن

« لقد أرهق « الحاذق » الملائكة ، وقد كان ذلك بالأمس فقط حين قال لى ملاك : لقد خلقنا الجحيم لأجل أولئك الذين يتلألأون . فأى شىء ما عدا النار يستطيع أن يمحو معالم شىء مضىء ويصهر شيئا حتى ذبدته

فقلت له : « لكنكم حين خلقتم الجحيم خلقتم معه الشياطين لتحكمها ؛ ولكن الملاك أجاب : كلا إن الجحيم يحكمه أولئك الذين لا تؤثر فيهم النار

« يا الملاك الحكيم ! إنه يعرف سبل الرجال وسبل أنصاف الرجال. انه أحد السرافيم الذين هبطوا إلى الارض ليقوموا على خدمة الأنبياء عندما يجربهم الشيطان ولا شك فى أنه يبتسم حين يبتسم الإنبياء ، ويبكى أيضا حين يبكون

« يا أصدقائى ، ويا بحارتى ، ان من يتجرد من ثيابه هو وحده الذى يعيش فى الشمس ، ومن لا دفة له هو وحده الذى يستطيع أن يعبر البحر الأعظم . ومن ينام فيطويه ظلام الليل هو وحده الذى يستيقظ مع الفجر ، وذلك الذى يرقد مع الجذور تحت الثلج هو وحده الذى يستطيع أن يحظى بلقاء الربيع .

« وأنتم كالبزور فى كل شىء ، أنتم كالجذور أيضا فى سذاجتها غير أنكم تستمدون حكمتكم من الأرض ، وأنتم صامتون ولكن فى أعضائكم التى لم تولد بعد توجد جوقة الرياح الأربع

« أنتم متقلبون لا صورة لكم ، ولكنكم أيضا أصول السنديانات العالقة ، والأنموذج غير الدقيق لأشجار الصفاف المشرعة فى السماء

« انى لأقولها مرة ثانية ، ماانتم الاجذور قد وسدت بين التربة المظلمة والسماء المتحركة ، وكثيرا ماكنت أراكم تنهضون لترقصوا مع الضوء ولكنى كنت أراكم أيضا تحمرون خجلا . فالجذور كلها حيه فقد أخفت قلوبها طويلا حتى أنها لتجهل ماذا تفعل بقلوبها

« لكن سوف تأتى أيام مايو . وهى العذراء التى لاتستقر ، والتى سوف تلد الجبال والسهول »

وتوسل اليه واحد ممن خدموا فى الهيكل قائلا : « علمنا ياسيد حتى تصبح أقوالنا كاقوالك تسبحه للشعب وبخوراً »

وأجاب المصطفى وقال : « لسوف تعلون فوق أقوالكم بيد أن طريقكم سوف يبقى كما هو إيقاعاً وعبيراً : إيقاعاً للمحبين والمحبوبين ، وعبيراً لأولئك الذين يودون أن يقضوا حياتهم فى حديقة . ولكنكم سوف تعلون فوق أقوالكم الى ذروه تسقط عليها أتربة النجوم وستبسطون اياديكم حتى تمتلىء ثم تضطجعون وتنامون كما ينام طائر صغير أبيض فى عشه الابيض ثم تحلمون بغدكم كما تحلم الزنابق البيضاء بالربيع .

« نعم ستذهبون إلى أعمق مما تذهب اليه كلماتكم وسوف تبحثون عن الينابيع الضائعة التى تتجاول وستكونون كهفا خفيا يردد صدى رنات الأعماق الخابية التى لا تسمعونها الآن .

« وستذهبون إلى أعمق مما تذهب اليه كلماتكم نعم الى ماهو أعمق من الأصوات جميعا ، الى ذات قلب الأرض ، وبذلك تصبحون وحدكم مع ذلك الذى يسير فوق الجره .

في معنى الكون

وبعد هنيهة سأله واحد من تلاميذه قائلا : « هات حدثنا عن « الكون » مامعنى أن أكون فنظر اليه المصطفى طويلا وأحبه ، ثم وقف وسار مسافة طويلة بعيداً عنهم ثم عاد قائلا : « فى هذا الحديقة يرقد أبى وأمى بعد أن وسدتهما أيدى الأحياء وفى هذه الحديقة أيضا ترقد تحت التراب بذور العام الماضى ، حملتها الى هنا أجنحة الرياح . ولسوف يوسد أبى وتوسد أمى هنا الف مرة ، وألف مرة سوف تدفن الرياح البذور، وكما جئنا الآن سوف نأتى ثانية أنتم وأنا ، وهذه البذور فنجتمع فى هذه الحديقة كما نفعل الآن تماما ، « وسنكون » متيمين بالحياة « وسنكون » بالمكان حالمين « وسنكون » منطلقين صوب الشمس .

« أما الآن فمعنى أن أكون هو أن أكون حكيما بيد أننى لن أكون حينئذ غريبا لدى الاحمق ، هو أن أكون قويا ولكن لا أكون عاطلا كالضعيف هو أن الهو مع الصغار لا كأب بل كرفيق يتعلم العابهم

« هو أن أكون بسيطا ووفيا بشيء خفيا فاجالسهم فى ظل السنديانات العتيقة ، رغم أننى ما زلت أسير مع الربيع

« هو » أن أفتش عن شاعر حتى ولو كان يعيش خلف البحار السبعة

وأصمت فى حضرته ، لا أنتظر شيئا ولا أرتاب فى شيء ولا يكون ثمة سؤال يتردد على شفتى.

« وهو أن أعرف أن القديس والخاطىء توءمان أباهما هو مليكنا الكريم ، ولا يعدو الأمر أن يكون أحدهما قد ولد قبل الآخر بلحظة واحدة ، ومن ثم دعوناه نحن بالأمير المتوج

« أن أتبع الجمال ، ولو انتهى بى إلى شفار هاوية عميقة ، ورغم أن الجمال بجنح يستطيع أن يعبر هذه الهاوية ، أما أنا فلا أجنحة لى . بيد أنه يجب على أن أتبعه » فحيث لا يوجد الجمال فلا وجود لشيء .

« هو أن أكون حديقة لا أسوار لها ، وكرما بغير حراس ان أكون خزانه مفتوحة أبدا للعابرين.

« هو أن أسلب ، وأغش وأخدع ، نعم أن أضلل وأسقط فى الشباك ثم يسخر منى الناس ، لكننى فى هذا كله أنظر باسما من قمة ذاتى الكبرى عالما أنه ثمة ربيعا سيأتى الى حديقتى ليرقص فى أوراقها وثمة خريفا سوف ينضج اعنابها ، عالما أنه لو كانت هناك نافذة واحدة فقط مفتوحة صوب الشرق فلن أكون فارغا قط ، عالما أيضا أن كل أولئك الذين يعتبرهم الناس أشرارا وسارقين وغاشين

ومخادعين هم أخوتى فى الحاجة ولعلك أنت كل هؤلاء فى عين ساكنى المدينة الخفية المباركين ، فوق هذه المدينة

«والآن اليكم انتم أيضا ، يامن تشكل أيديهم وتوجد جميع الاشياء اللازمة لراحة أيامنا ولياليا

«أن أكون هو أن أكون ناسجا بأيدى مبصرة ، بناء بعقل كل نور ومكان ، أن أكون حارثا أدرك اننى أخفى كنزا فى كل حبة أبذرها . أن أكون صيادا أو قناصا تملأ الشفقة قلبه نحو السمك والحيوان ، ولكن يفيض شفقة أعظم نحو جوع الانسان وحاجته.

«وأخطر من ذلك كله ، أقول هذا : أود لو شارك كل منكم فى اهداف غيره فبهذا وحده ترجون أن تدركوا اسمى اهدافكم

« يارفاقى ويا احبائى ، كونوا شجعانا غير متخاذلين كونوا أرحب من أن يحصركم شىء ما ، وإلى أن تأتى ساعتى وساعتكم الاخيرة كونوا بحق ذاتكم الكبرى »

وامسك عن الكلام ، وشملت التسعة كآبة عميقة ، وتحولت عنه قلوبهم لأنهم لم يفهموا أقواله . وأشتاق البحارة إلى البحر ، أما

الثلاثة الذين خدموا فى الهيكل فقد بدأوا يحنون الى سلوى محرابه وأولئك الذين كانوا رفاقه فى اللعب كانوا يرغبون فى العودة إلى السوق

كانوا جميعا صما لا يفقهون معنى لأقواله وهكذا عاد إليه صداها كطيور متعبة لا وطن لها تحن إلى أوكارها

وسار المصطفى بعيدا عنهم فى الحديقة لاينبت حبل صمته ولا يرنوا اليهم بلحظ

أما هم فبدوا يتحدثون فيما بينهم عن مبرر لاشتياقهم إلى الانطلاق

والآن قد انقلبوا عائدين كل واحد إلى مكانه، وهكذا تركوا المصطفى المختار الحبيب وحيدا

وعندما هبط الليل ، أخذ وجهته شطر قبر امه وجلس إلى جواره تحت شجرة الأرز التى تنمو فوق المكان وأنئذ لاح فى السماء ضوء عظيم ، واهتزت الحديقه كما أنها لو كانت حجرا كريما فوق صدر الأرض

وصرخ المصطفى فى وحدة روحه وقال : « نفسى مثقلة بثمارها الناضجة فهل من جائع يقبل ويجنى ويشبع ؟

« أليس بين الناس من صائم رؤوف كريم القلب يفطر على باكورة ثمارى ويخفف عنى أعباء خصبى وغزارتى ؟

« نفسى طافحة بخمرة الدهور فهل من ظامىء يسكب ويرتوى ؟

« هوذا رجل واقف فى مفرق الطرق يبسط نحو العابرين يداً مفعمة بالجواهر ، ويناديهم قائلا : « الا فأرحمونى وخذوا منى أناشدكم الله أفلا تأخذوا من يدى وتشفقوا على » .

« أما الناس فيمرون به ولا يلتفتون .

« ألا ليته كان شحاذاً يمد يده ، نعم يده المرتعشة نحو العابرين

ثم يرجعها فارغة إلى صدره ، فإن ذلك خير له من ان يمدها مثقلة بعطايا ثمينة فلا يجد من يأخذ منه

هو ذا الأمير الكريم قد نصب خيامه الحريرية بين الجبل والصحراء وطلب إلى عبيده أن يشعلوا النار علامة للغريب والتائه وأرسلهم ليرصدوا السبل عليهم يقودون اليه ضيفا . ولكن دروب الصحراء ومعابرها لم تسلم اليهم أحداً ولم يجدوا إنسانا

الا ليت هذا الامير كان رجلا لا مكان له ولا زمان فى حاجة الى طعام والمأوى . الا ليته كان شريدا يطوف البلاد بعصاه ووعاءه الخزفى ، فإذا ماهبط الليل التقى بأقرباءه وبالشعراء الذين لامكان لهم ولازمان ؟ يقاسمهم ذكرياتهم واحلامهم

هوكذا إبنة الملك العظيم قد استيقظت من رقادها والقت على رأسها وشاحها الحريرى وتزينت بلآلئها وجواهرها وضمخت شعرها بالمسك وغمست أصابعها فى العنبر ، ثم هبطت من برجها الى الحديقة حيث تكسو قطرات الندى فى الليل صندلها الذهبى

وفى سكون الليل سارت ابنة الملك العظيم تبحث فى حديقتها عن حبيبها ، ولكن فى كل مملكة ابيها العظيمة لم يوجد من يحبها

الا ليتها كانت إبنة الزارع ترعى خراف أبيها فى الحقل ثم تعود فى المساء إلى كوخ أبيها وقد علا قدميها تراب الدروب الملتوية

وعبق أريج الكروم ثنايا ردائها ، فإذا ما خلق ملاك الليل فوق العالم ، أسترقت خطاها إلى وادى النهر حيث ينتظرها حبيبها .

« ألا ليتها كانت راهبة فى الدير تحرق قلبها بخورا ينتشر مع الريح ، وتوقد روحها شموعا ينتشر ضوءها فى الأثير ، مع المتعبدين والمحبين والمحبوبين » .

« ألا ليتها كانت أمرأة عتيقة الأيام تجلس فى الشمس وتذكر من شاركها شبابها » .

وغدا الليل عميقا ، وصار المصطفى كالليل مبهما وصارت روحه كغمامة معقودة وصرخ ثانية : —

نفس مثقلة بثمارها الناضجة .

نفسى مثقلة بثمارها .

فهل بين الناس من يقبل ويأكل ويشبع ؟

نفسى طافحة بخمرها .

هل من ظامىء يسكب ويشرب ويرتوى من لفح الصحارى .

ألا ليتنى كنت شجرة بلا زهور وبلا ثمار .

لأن ألم الخصب أكثر مراره من ألم العقم .

وأحزان الغنى الذى لا يأخذ منه إنسان لأشد هولا من كآبة السائل الذى لا يعطيه إنسان .

ليتنى كنت نبعا جافا ويابساً يلقى الناس فيه بالحجارة.

فذلك خير لى وأيسر احتمالا من أن أكون نبع ماء حى يعبر به الناس ولا يستقون .

ألا ليتنى كنت قصبة تطأها الأقدام .

فذلك خير لى من أن أكون قيثاره فضية الأوتار فى منزل سيد مبتور الأصابع وبنيه صم .

الوصية الأخيرة

وظل المصطفى فى الحديقة سبعة أيام وسبع ليالى وحيداً مع ذكرياته وآلامه لم يأت إليه فيها إنسان. أما أولئك الذين أنصتوا إلى كلماته بشغف وأناه فقد عادوا إلى مطارده أيام أخرى.

أما كريمة فقد جاءت وحدها وقد انسدل حجاب من السكون فوق وجهها، وقد أمسكت فى يدها صفحه وقدح، طعام وشراب لوحدته ومأكله، وبعد أن صفت أمامه هذا كله عادت من حيث أتت.

وعاد المصطفى مرة أخرى إلى صحبه أشجار الحور داخل البوابة، وجلس يرقب الطريق، وبعد قليل رأى ما خيل إليه أنه سحابة من النقع المثار فوق الطريق مقبلة نحوه؛ ومنها خرج التسعة تتقدمهم كريمة.

وخرج المصطفى إلى الطريق واستقبلهم ثم دلفوا من البوابة وقد شملهم جميعا سلام عميق، كأنما كانوا قد تركوه، ومضوا عنه فى طريقهم منذ ساعة واحدة.

ثم دخلوا وتناولوا العشاء على مائدته المتواضعة ، بعد أن وضعت عليها كريمة خبزا وسمكا وصبت فى الكؤوس ما بقى من الخمر ، وبينما كانت تفعل ذلك قالت للسيد : « إئذن لى أن أمضى إلى المدينة وأبتاع خمرا أملأ بها كؤوسكم لأن هذه قد فرغت ، ولم يبق فيها شيء .

فنظر إليها المصطفى ، وقد لاحت فى عينيه خيالات سفرة ومدينة بعيدة ثم قال : « كلا فهذه تكفى الساعة » .

ثم أكلوا وشربوا وشبعوا ، وعندما فرغوا تحدث المصطفى بصوت عظيم عميق كالبحر ملىء كحركة مد وجزر بعيدة تحت ضوء القمر ، وقال : « يا صحابى ، ويا رفاق طريقى ، قد آن لنا اليوم أن نفترق . فقد أبحرنا طويلا فى بحار هائجة ، وتسلقنا جبالا وقمار هيبة الانحدار ، وصار عنا الأمواج .

وكما عرفنا الجوع وذقناه جلسنا أيضا إلى موائد الأعراس . نحن قد تعرينا كثيراً ، ولكن كثيراً ما ارتدينا حلل الملوك . لقد كانت سفرتنا وأيم الحق بعيدة الأغوار ، أما الآن فقد آن لنا أن نفترق .

ستنطلقون أنتم فى طريقكم ، وسأمضى وحدى فى طريقى .

ستفصلنا البحار والأراضي الشاسعة ، ولكن سنبقى جميعا رفقاء في رحلتنا إلى الجبل المقدس .

ولكني أريد أن أهبكم - قبل أن نمضي في طرقنا القاسية - حصاد قلبي وبقاياه .

أذهبوا في طريقكم مغنين ، ولكن لتكن كل أغنية من أغنياتكم قليلة الكلمات ، فالأغنية التي تموت طفله فوق شفاهكم هي وحدها التي تعيش في القلوب الإنسانية .

أذيعوا الحق الجميل في كلمات قليلة ، ولكن إحذروا أن تذيعوا حقا قبيحاً في كلمات قليلة أو كثيراً . قولوا للصبية الجميلة التي يتلألأ شعرها في ضوء الشمس أنها ابنة الصباح ، أما إذا صادفتم الأعمى في الطريق فلا تذكروا له أنه توأم الليل .

أنصتوا لمن يلعب على الناي ، كما لو كنتم تنصتون إلى نيسان ولكن صموا اذانكم - فلا يكون ثمة فرق بينكم وبين عظامكم - عن أن تستمعوا إلى كلمات الناقد وذلك الذي يبحث عن العيوب ، وابقوا بعيدين عنهما بعد خيالاتكم عنكم .

يا رفاقي وأحبائي . في طريقكم ستلتقون برجال ذوي حوافر فهؤلاء أجنحتكم .

وستلتقون رجالا ذوى قرون فقدموا لهم أكاليلا وغارا .

« ستلتقون برجال ذوى مخالب ، فقدموا لهم زهرات عوضا عن الأظافر

« ستلتقون برجال ذوى ألسنة كالشوك ، فامنحوهم عسلا بدلا من الكلمات ،

نعم ، سوف تلتقون بكل هؤلاء ، بل وبأكثر من هؤلاء

ستلتقون بالأعرج يبيع العكاكيز ، وبالأعمى يعرض المرايا وبالغنى يمد يده للسؤال أمام باب الهيكل

اعطوا الأعرج من سرعتكم ، وللأعمى من رؤاكم ، ولا تنسوا أن تعطوا للسائل الغنى من ذواتكم : انه أشد الجميع حاجة إلى عطاياكم . فيقينا أن إنسانا لا يمد يده للأحسان ، ما لم يكن فقيراً حقا ، وإن ملك الكثير .

أناشدكم يا رفاقى وأصدقائى بحق هذا الحب الذى يجمع بيننا أن تجعلوا فى نفوسكم معابر كثيرة يلتقى بعضها ببعض . حيث تسير الضياغم والأرانب ، والذئاب أيضا والخراف .

« واذكروا عنى هذه الأقوال : لا أعلمكم العطاء بل الاخذ

لا النكران بل الوفاء، لا الاستسلام بل الفهم، وفى هذه جميعا أن تكونوا متفائلين .

« لا أطلب اليكم أن تصمتوا بل أن تغنوا بصوت رقيق غير مرتفع

« وأعلمكم أن ذاتكم الكبرى إنما تشمل جميع أنواع الرجال »

ثم نهض عن المائدة وذهب توآ إلى الحديقة وسار فى ظل اشجار السرو بينما أخذ ضوء النهار فى الشحوب . اما هم فقد تبعوه عن بعد لأن قلوبهم كانت مثقلة ، وقد التصقت السنتهم بحلوقهم.

ثم جاءت اليه كريمة ، بعد أن وضعت عليها إزارها وقالت:

« أود يا سيد لو أنك حملتنى أمر اعداد الطعام لرحلة الغد »

فنظر اليها المصطفى بعينين تريان عوالم أخرى غير عالمنا هذا وقال : « يا أختى وحبيبتى ، لقد تم هذا منذ بدء الزمن. إن الطعام والشراب قد أعدا للغد كما كانا بالأمس واليوم.

« سوف أمضى ؛ ولكن إن مضيت ، وفى جعبتى حق لم أذعه بعد ، فسوف يبحث عنى هذا الحق ثم يجمعنى ثانية ، حتى ولو تناثرت عناصرى فى صمت الأبد . وسأعود حينئذ ثانية

لأظهر أمامكم ، وسأتكلم أيضا بصوت قد ولد من جديد من قلب هذا السكون الطليق

وإذا كان ثمة شيء جميل لم أعلنه لكم ، فسوف ادعى مرة أخرى . نعم ، ولو حملت اسمى الخاص (المصطفى) وسأعطيكم آية لتعرفونى بها عندما أعود لأذكر لكم كل ما ينقصكم . فليس فى وسع الله أن يخفى ذاته عن الناس ، ولا أن يطمر كلمته فى قلب انسان

« سأحيا وراء حجاب الموت ، وسأصب أغنياتى فى آذانكم حتى بعد أن تحملنى موجة البحر الهائلة عائدة إلى غور البحر العظيم.

« سأجلس إلى مآدبكم روحا بلا جسد

وسأنطلق معكم إلى حقولكم روحا خفيا

« سآتى اليكم وأجلس معكم إلى جوار مدافئكم ضيفا غير مرئى

« إن الموت لا ينسخ شيئا عدا الأقنعة التى تغطى وجوهنا .

« فسيظل رجل الغابة حينئذ رجل الغابة

وسيبقى الزارع زارعا

« كما أن ذلك الذى غنى للريح أغانيه سوف يغنيها أيضا للأجرام الدائرة.

أما التلاميذ فكانوا كالحجارة ساكنين، وقد خطت الكآبة على قلوبهم لأنه قال « سأمضى » ولكن واحدا منهم لم يمد يداً ليستبقى السيد كما لم يحاول واحد منهم أن يتبعه إلى حيث يمضى.

أما المصطفى فقد غادر حديقة أمه، ومضى بخطوات سريعة لا صوت لها، وفى طرفة عين كان قد اختفى عنهم كما تختفى ورقة الشجر حين تنفخها ريح شديدة. ثم رأوا ما يشبه الضوء الشاحب يمضى مرتفعا إلى الأعالى.

وعاد التسعة من حيث أتوا، أما المرأة فبقيت فى مكانها ساكنة فى الليل المتجمع، وشاهدت كيف أصبحت الاضواء والظلال شيئا واحدا، ثم راحت تعزى نفسها عن هجرانها ووحداتها مرددة كلماته «سأمضى، ولكن إن مضيت وفى جعبتى حق لم أذكره بعد فسوف يبحث عنى هذا الحق ويجمعنى ثانية».

وهو ذا قد صار المساء .

وحين بلغ التلال ، قادته خطواته إلى الضباب، وهناك وقف بين الصخور وأشجار السرو البيضاء ، محتجبا عن جميع الأشياء، ثم تكلم وقال :

أيتها الضبابة ، يا أختى ، أيتها النسمة البيضاء التى لم يصوغها قالب بعد .

ها أنا ذا أعود إليك نسمة بيضاء لا صوت لها وكلمة لم تنبث بها شفة بعد .

أيتها الضبابة ، يا أختى المجنحة ، ها قد أصبحنا الآن معا ، وسنبقى معا إلى حياة اليوم الثانى .

الذى سوف يسقطك فجره قطرات من الندى فى حديقة ، ويهبط بى أنا طفلا فوق صدر أمرأة .

ولسوف نذكر ذلك .

أيتها الضبابة ، يا أختى ، ها أنا أعود إليك قلبا يصغى إلى أعماقه

كما يصغى قلبك أيضا .

ها أنا أعود إليك رغبة مرتعشة لاهدف لها كما ترتعش أيضا رغبتك .

وفكرة لم تتماسك بعد ، كما هى فكرتك .

« أيتها الضبابة ، يا أختى ، يابكر أمى .

وخذى يداى مازالتا تحملان البذور الخضراء التى طلبت إلى أن أنثرها .

وشفتاى مختومتان فوق الأغنية التى رجوتنى أن أغنيها .

وها أنا أعود بلا ثمر ، وها أنا أعود بلا أصداء ، لأن يداى كانتا عمياوتان ، وشفتاى عقيمتان .

« أيتها الضبابة يا أختى ، لقد أحببت العالم كثيراً ، وأحبنى العالم كثيراً .

لأن بسماتى كلها كانت تعلو شفتيه أما دموعه كلها فقد ملكت عيناى

ولكن كان ثمة بيننا هوة من الصمت لم يكن فى وسعه أن يعبرها وأشفقت أنا أيضا أن أقفز فوقها

« أيتها الضبابة ، يا أختي ، يا شقيقتي الحالمة ، لقد أنشدت الأغنيات القديمة إلى أطفالي الصغار ، فانصتوا إلى وعلى وجوههم سيماء الدهشة ، ولكنهم قد ينسونها غدا .

ورغم أنها لم تكن أغنيتي أنا إلا أنها أتت إلى قلبي وسكنت فوق شفتي وان يكن إلى لحظة

أيتها الضبابة ، يا أختي ، رغم أن كل هذا قد حدث لي فما زال السلام يملأ قلبي

وقد كان يكفيني أن أغني لأولئك الذين قد ولدوا من قبل

ورغم أن هذا الغناء لم يكن غنائي أنا

ولكنه رغبة من رغبات قلبي المتأصلة .

أيتها الضبابة ، يا أختي ، ويا شقيقتي

ها أنا الآن واحد وإياك .

و لن أكون ذاتا فيما بعد .

لقد سقطت الاسوار ...

وتكسرت الأغلال ،

وإنى أرتفع اليك ، ضبابة

وسنطفوا معا فوق البحر إلى حياة اليوم الثانى .

حين يسقطك الفجر قطرات من الندى فى حديقة

ويهبط بى أنا طفلا فوق صدر امرأة

فهرس الموضوعات

	(الصفحات)
مقدمة	٣
عودة المصطفى إلى مسقط رأسه	١٢
أحزان اللقاء وخواطره	١٣
المصطفى فى حديقة أمه	١٥
ذكرى مدينة أورفليس	٢٠
فى الوجود النسبى والوجود المطلق .	٢٢
فى المكان الوجودى	٢٥
فى هبات الليل وبركاته	٢٨
فى الزمن	٣١
فى الوحدة	٣٥
فى الحركة والحياة	٣٧
فى الله	٣٨
فى معرفة الحقيقة	٤٢
فى معنى « الكون »	٤٥
فى الآلام النبوة	٤٩
الوصية الأخيرة	٥٣
فى الموت	٥٨
فيما وراء الموت	٦٠
الفهرس	٦٤

كما ان الاطفال يعبثون باواني البيت الثمينة

فيكسرون ما ينكسر ويمزقون ما يتمزق ويرمون

باللآلئ بين الاقذار هكذا فان بعض مترجمين جبران

خليل جبران يرمون جواهره في هذا الاسلوب

البغيض ويزجون روحه العذب في كونهم المظلمة

ويبعثرون افكاره في الارض او يذرونها في الهواء

DATE DUE

8 MAR 1973
JAFET LIB.
14 OCT 1976
JAFET LIB.
JAFET LIB.
31 OCT 1997
Circulation Dept. 4
27 FEB 2002
Circulation Dept. 3
J. Lib.
14 NOV 1985
JAFET LIB.
30 OCT 2003
Circulation Dept. 2

جبران ،جبران خليل
حديقة النبي
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038010

899.73
E-MhAL
c.1

892.78
G44gA
c.1